

التأسيس الفلسفي للسوسيولوجيا

في الستينيات طور هابرماس، من خلال تحذيره لموقف هوركهايمر، الفرضية التي ترى أنه لا يمكن للفلسفة الإبقاء على زعمها بالتفكير في الحاضر إلا إذا حددت لنفسها كمهمة استخلاص شروط إمكانية معرفة هذا الأخير، بغية تقبل كل الافتراضات وتفسير الأسس. هل هذا يعني أن إستمولوجيا العلوم الاجتماعية تشكل فصاعدا البرنامج الوحيد لفلسفة أرادت أن تكون تاريخية بالكامل؟ ليس تماما. بالتأكيد، فهذه الفلسفة تفقد كثيرا احتكار التفكير في الحاضر (الذي تحتفظ به في ميتافيزيقيات التاريخ على سبيل المثال)، لأنها محكومة بعدم الارتباط به إلا بكيفية غير مباشرة (عن طريق مناقشة خطاب العلوم الإمبريقية). لكن، في الوقت نفسه، بعيدا عن التقيد بالمهمة الشكلية في النظر من الخارج للمعارف الوضعية التي وحدها تقدم معرفة تاريخية حقيقية، تساهم الفلسفة بنشاط في ذكاء السلوك. بل أن دورها يبدو أساسيا.

في المقام الأول، يريد التفكير الفلسفي حول العلوم الاجتماعية أن يمدّها بتوضيح نقدي حول ذاتها والذي سيكون له أثر إيجابي على تطبيقاتها الفعلية. مثل هذا التوضيح ضروري، في اعتقاد هابرماس، لأنها [أي العلوم الاجتماعية]، من ذاتها، لا تشرف دوما بشكل مُرض زعمها بتحويل العالم المعاصر إلى موضوع للفكر، ويرجع هذا الأمر إلى أسباب موضوعية. بالفعل، إن هذه الفروع

ليست على وعي في الغالب بالعقلنة rationalization التي تستطيع ويتوجب عليها القيام بها: من هنا، يؤكد الفيلسوف، التصورات الخاطئة التي يمكن أن تكون لرهاناتها، وما يتبع ذلك من توجيهات منهجية خاطئة، وأخيرا، تشكيل مفاهيم وهمية وفرضيات غير وافية بالغرض. إذن، تلقائيا، فإن علوم الحاضر لا تدرك ما تفعل؛ ومن ثمة فمن الضروري أن تخصص الفلسفة معنى لما تقوم به هذه العلوم، توضح شروط إمكانية العلم الذي تُعدّه وتنشئ صلاحية وحدود هذا الأخير.

في المقام الثاني، إذا كان التفكير في العلوم الاجتماعية يفيد أيضا بوصفه تدخلا نشطا في بناء معرفة الحاضر (ومن ثمة أخيرا في الحاضر ذاته)، فذلك لأن الإبيستيمولوجيا والنظرية النقدية مرتبطتان ببعض بشكل عميق¹. بالفعل، ففي المجتمعات الصناعية المعاصرة، أصبح العلم والتقنية إيديولوجيات أساسية، وبهذا المعنى فعن طريقها أو باسمها - وليس على سبيل المثال من خلال الدين - حيث تمارس فصاعدا الهيمنة، التي يمكن أن توصف بالعقلية. بيد أن نظرية المعرفة التي تحتاج إليها العلوم الاجتماعية، حسب هابرماس، سيكون هدفها بالضبط التعلم مجددا التسليم بتنوع أشكال العقل، ومن ثمة نسبة

1 راجع القضايا التي تفتتح (p.31) CI [أي كتاب هابرماس المعرفة والمصلحة Connaissance et intérêt (1968), trad. Par G. Cléménçon, Gallimard, 1973]: من جهة، لن يكون النقد الراديكالي للمعرفة ممكنا إلا تحت صورة نظرية المجتمع، من جهة أخرى، لا نستطيع الوصول إلى النظرية الاجتماعية إلا بواسطة تفكير ذاتي للعلم. في الوقائع، فإن ثاني أطروحاته، الأساسية، تحدد منظور الكتاب حيث تتجلى، أما الأطروحة الأولى فتتعلق بالأخرى بكتاب TS [أي كتاب هابرماس العلم والتقنية كإيديولوجيا La technique et la science comme idéologie(1968), trad. Par J.-R.

[Ladmiral, Denoël-Gonthier, 1978.

relativisation* العقلنة المتجسدة في العلوم الدقيقة وفي التقنية. بالتالي، فإن للتفكير النقدي (بالمعنى الكانطي) حول المعارف أهمية مباشرة بالنسبة للنقد الاجتماعي الذي يؤسسه: إنه يسمح بتفكير أحادي لعلم ولتقنية أصبحا غير محدودين، وكذا بالنسبة لوجود صور أخرى من العقل مخفية أو مقهورة في مجتمعاتنا والتي يمكن أن تكون مرتبطة بقوى اجتماعية مماثلة. وبتصورنا لأشكال العقلانية كما هي في الآن نفسه موضحة في العلوم أو في الإيديولوجيات ومتجسدة في الممارسات الاجتماعية، تساهم نظرية المعرفة إذن، بكيفية مباشرة، في الذكاء النقدي لعصرنا.

باختصار، إن الفلسفة التي تريد التفكير في الحاضر ما هي إلا نقد للمعارف الموجودة، والتأمل حول الخطاب يشكل منهجها الوحيد. غير أن هذا التغير لا يتضمن تخفيضها إلى نظام متواضع كمعرفة من الدرجة الثانية، وبتراجع بالنسبة للمعرفة الجارية. فعلا، إنها تحافظ على طموح بناء لتأسيس العلوم الإمبريقية نظريا بل وتعين المفاهيم الأساسية للنظرية الاجتماعية.

* فضلنا ترجمة لفظة relativisation إلى "نسبنة" مثلما نترجم كلمة rationalisation إلى عقلنة ونقصد بها إضفاء طابع النسبية على الشيء أو الفكرة وتفاديا لاستخدام عبارة بأكملها من أجل معنى لفظة واحدة فقد اجتهدنا في وضع لفظ "نسبنة" تيسيرا لاستعماله وتداوله. (المترجم)

السوسيولوجيا بوصفها علم الحاضر

لتسويغ هذه الوضعية المعقدة، تتضمن استراتيجية هابرماس أولاً ملاحظة وتدوين مزاعم فرع علمي موجود، السوسيولوجيا، وإلى رفع العالم المعاصر إلى مستوى موضوع المعرفة¹؛ بعد ذلك عليها أن تستدل، بغية تقييم صلاحية مزاعمها، انطلاقاً من الحالة الراهنة للفرع. غير أن هذه الأخيرة تحددت، في الستينيات، بتوجه جديد ينبغي عليه في الأخير ضمان تحولها إلى علم وضعي، وفق منظريها وفلاسفتها، من أمثال بوبر Popper، الذين شجعوها. فالأمر يتعلق بالنسبة إلى السوسيولوجي، حسب ما يقال، نسيان الأوائل وإرثهم النظري (النظرية الكبرى، إعادة البناء التاريخية الشاملة) لكي يعرف نفسه من جديد كتنقي في البحث (محادثة، سير، إحصائيات) ويعمل على استخدام نسقي للأداة الرياضية. كما يفهم جيداً، ينسجم العلم الاجتماعي الناضج إذن وفق نموذج العلوم الدقيقة: إنه بحث محايد اجتماعياً وسياسياً، غايته تفسير العلاقات بين الظواهر بواسطة القوانين العامة المتحكم بها إمبيريقياً بفضل

1 نقطة الانطلاق هذه ليست مبتذلة مطلقاً. هكذا، نقراً كذلك لدى فوكو بأن الفكر الحديث يعثر في تحليل الحاضر التاريخي أحد محاوره الرئيسية (أنظر على سبيل المثال «ما الأنوار؟» «Qu'est-ce que les Lumières?» In Dits et écrits, Gallimard, t. 4, p. 562-578) لكن بتثمين دور كانط والفلاسفة الذين تبعوه في هذه المسألة في نشأة هذه الإشكالية، ينسب فوكو أصالة التقليد السوسيولوجي ويحدّد دفعة واحدة زعمه البناء للتفكير في الحاضر.

اختبارات مضبوطة؛ إنه يستند إلى وقائع محددة بوضوح، بالأحرى قابلة للقياس الكمي، خاضعة للملاحظة الصارمة، بل حتى للتجريب¹. لقد كانت الأفكار الأولى لـ هابرماس مدفوعة بقصد نقد هذه النزعة: بالنسبة إليه، فإنها لا تركز فحسب على تصور أحادي للمشروع السوسيولوجي، إنما تشكل أيضا عقبة أمام إقامة معرفة عقلية عن الحاضر. في بداية مساره الفلسفي، أبدى قبوله لصرامة التشخيص الأدورني [نسبة إلى أدورنو] لحالة العلوم الاجتماعية المعاصرة المشار إليه أعلاه، وهو تشخيص في حد ذاته نموذجي للتقييم المتشائم باتساق الذي كان يحمله مؤسسو مدرسة فرانكفورت عن عصرهم. إذن فالأمر بعيد عن استخلاص نفس النتائج.

بالفعل، فإن الموقف الراديكالي لـ أدورنو يفترض أن يؤدي إلى إغواء رفض شامل لمشروع سوسيولوجيا تفهم بوصفها علما إمبيريقيا، مستقلا بالنظر إلى الفلسفة، وبدا أنه مجبر على التجديد، كما جرى على منوال الإنكار أو التأمل حول استحالته، فتفوق فلسفة اجتماعية أو فلسفة للتاريخ، وحدها القادرة بأن تضمن للفكر الشعور بمعنى عميق حول الحاضر التاريخي وحول الكل الاجتماعي. على العكس من ذلك، فإن هابرماس، وبما أنه يرفض اختزال السوسيولوجيا في شكل معين للإيديولوجيا، يجد نفسه في مستوى الإحاطة بشكل عيني، وبكيفية أقل

1 يتعلق إذن هابرماس بلحظة في تاريخ السوسيولوجيا هي اليوم متجاوزة، حيث يمكن أن نجد دفاعا متماسكا وبراغماتي في نصوص لازارفيلد Lazarsfeld المجمعّة بالفرنسية تحت عنوان *philosophie des sciences sociales* فلسفة العلوم الاجتماعية. للتذكير فإن هذا التيار الوضعاني أثار في عهده انتقادات حادة داخل العلوم الاجتماعية نفسها، وحيث أن المثال المشهور جدا هو ذلك المتصل بالخيال السوسيولوجي لـ ميلس *L'imagination sociologique de Mills*.

ظهوراً، بصعوباته وبحدوده الحالية. من دون التشكيك في أن الروابط الواقعية جداً للسوسيولوجيا الحديثة يمكنها أن تنفصل عن الدوغما* العلمية التي تلهمها، لقد اهتم أولاً بالصعوبات التقنية للبحث التي أعيد تحديدها بعبارات وضعية: ألم تحمل على الاستهانة أو سوء تقدير لتكاليف تخصص مسبق يعزل الظواهر بعضها عن بعض وإلى المبالغة أو الإفراط في تقييم ملائمة بعض المقاربات الخاصة (على سبيل المثال السيكوسوسيولوجية)؟ ألم تنته إلى تجاهل الانحيازات الناجمة عن استعمال بعض المناهج التي تقبل صلاحيتها وتضع بين قوسين التغير والمدة، باختصار، التحلي عن التفكير في الحاضر تاريخياً في الحاضر؟ لكنه يرتبط خاصة بالتباسات وتوترات داخلية للتقليد السوسيولوجي في مجمله، لإظهار أن تاريخه المعاصر، من خلال تحيين واحدة فقط من الإمكانيات التي تحتويها، يترك مفتوحاً طريق إعادة تفعيل الشطر الآخر، إلى هنا مهمل أو خفي، ومع ذلك يمكن أن يكون أكثر خصوبة في الواقع.

هذا الاتجاه الأصلي يتجلى بالخصوص في نص لسنة 1962، «مهام نقدية ومهام محافظة للسوسيولوجيا»، حيث سعى هابرماس إلى إبراز كيف أن المؤسسين الأوائل لهذا الفرع كانوا حاملين لتصور عن نزعة أكثر راديكالية من تلك التي رسمها البحث الإمبريقي في صوره المعاصرة. ما السوسيولوجيا إذا، مثلما يحدث غالباً، جعلنا من مؤلفات الكتاب الأسكتلنديين لمرحلة الأنوار*، من أمثال، ميلار Millar،

* يقصد بالدوغما dogma الفكرة المبدئية التي تتأسس عليها مدرسة أو نزعة أو مذهب لا فرق في ذلك إن كان فلسفياً أو دينياً أو فنياً أو علمياً أو سياسياً وهي بمثابة عقيدة راسخة تؤمن بها. (المترجم)

* مرحلة الأنوار الإيكوسية (الأسكتلندية) Scottish Enlightenment وهي مرحلة شبيهة بما عرفته بلدان ومواطن أوربية أخرى شابتها ظروف سياسية، اقتصادية، ثقافية، دينية واجتماعية ساهمت على إحداث ديناميكية

فرغيسون Ferguson وسميث Smith، واحدة من المصادر الأساسية؟ «علم للحاضر على أقصى تقدير»، بالمعنى القوي للكلمة، يجب هابرماس. بالفعل، «إنها تتصور تطور النوع الإنساني ضمن منظور القرن الثامن عشر الإنكليزي. موضوعها هو المجتمع المدني *civil society* الذي، ضمن إطار الأغلبية البرلمانية، جراء أرسطوقراطية أضحت أكثر فأكثر برجوازية بفعل المصالح الرأسمالية، اكتسب استقلاله وصار داخل المجتمع دائرة خاصة يمكنها أن تدرس وفقا لقوانينها الخاصة». علاوة على ذلك، فإن هذه السوسيولوجيا «لا تكتفي بأخذ هذا التطور [التاريخي] كموضوع؛ بل أنها تتصور نفسها جزءا منها. في هذا المستوى، تظل واعية بأصولها الحقيقية، التي هي ثورية وتحررية *whig**. بلا ريب أنها تتابع اهتماما نقديا: تحرر هذا الرأي العام الذي، في المجال السياسي، يتشكل وسط الأفراد البرجوازيين أثناء القرن الثامن عشر» (TP, t. 2, p. 74).

فكرية أفرزت تفكيراً فلسفياً معمقاً ساهم بقسط كبير في تشكيل فلسفة للتاريخ وقاعدة للنظرية الاجتماعية والنظرية الاقتصادية ومن أهم كتاب تلك المرحلة فرنسيس هتشيسون Francis Hutcheson (فيلسوف وأحد الآباء المؤسسين للأثوار السكتلندية) (1694-1746)، ديفيد هيوم David Hume (فيلسوف، اقتصادي ومؤرخ) (1711-1776)، آدم سميث (فيلسوف واقتصادي) Adam Smith (1723-1790)، جون ميلار John Millar (فيلسوف ومؤرخ) (1735-1801)، توماس ريديد Thomas Reid (فيلسوف ومؤسس مدرسة النوق الفطري) (1710-1796)، جيمس بيرنت James Burnett (فيلسوف وفيلولوجي) (1714-1799) وآدم فرغيسون Adam Ferguson (كاتب ومكتبي) (1723-1816). (المترجم)

* "الويغ Whig" هو أحد الأحزاب التي كانت موجودة على الساحة السياسية البريطانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وقد خلفه في منتصف القرن التاسع عشر حزب الأحرار. كان أعضاء هذا الحزب أو الويغ معارضين للنزعة الملكية المطلقة ولعبوا دوراً حاسماً في ثورة 1688. وكان حزب الويغ خصماً لحزب توري Tory. (المترجم)

إن السوسيولوجيا، في الأصل، تثبت نفسها باعتبارها علما تاريخيا كاملا للحاضر، بمعنى مزدوج للوسط الذي تجد فيه أصلها والموضوع التي تجعله مركزيا ولكن أيضا بوصفها علما يدمج تأمل الوعي بتاريخية المعرفة كما يفرضها. بعد ذلك فإنها محاولة توضيح حاضر متصور في كل مداه - في الوقت نفسه زمنا تاريخيا يتطلب أن يستعاد ومجموع النزعات التي يمكن أن تدرك ثانية بواسطة القوانين -، باختصار، لحركة شاملة واتساق مرحلة مفسرة ضمن منظور في الآن ذاته تعاقبي (دياكرونيكي Diachronique) وتزامني (سانكرونيكي Synchronique). إن سوسيولوجيا الكُتّاب الإيكوسيين (الإسكتلنديين) هي في نهاية المطاف ذات ميل إلى اهتمام عملي. وإذا كان هابرماس يؤكد بأنها كانت طريقة بالنسبة للبرجوازية في الوعي برؤيتها للعالم وتشكيله، فلا يعني ذلك بداية نسبة من الجانب التاريخي مساهمتها؛ بل بالأحرى هو اعتراف بفضلها في فهم أن معرفة الحاضر ليس لها ميل للحياة، بشكل عام، وبما أنها محكومة بواسطة مصالح اجتماعية محددة، وفي أحسن الحالات، مستتيرة بواسطة إرادة توضيح شروط فعل ممكن في التاريخ. في الأصل، لقد تم تصور العلم الاجتماعي بوصفه مؤسسة ملزمة بتشكيل رأي عام باحث عن إدراك ما هو وما ينبغي أن يقوم به؛ لقد أراد الإسهام في مجهود جماعي للتأمل عبره يعمل أعضاء مجتمع على تحقيق الاستقلال الذاتي للفكر والفعل، والذي هو في جوهره نقدي وثنوري بالمعنى الذي يريد بالضرورة تذليل العقبات من كل نوع، سياسية، اجتماعية أو إيديولوجية، التي تناقض هذا الاستقلال.

يقترح هابرماس إذن تفسيراً أصلياً لظهور السوسيولوجيا باعتبارها فرعاً مستقلاً. إن دلالتها الأولى ليست، كما نقرأها لدى

كونت* أو دوركايم**، في كونها جعلت من الممكن الامتثال عبر فهم لميدان يشكل نسيج وحده *sui generis* للواقع، ذلك المتعلق بالحياة الاجتماعية والتاريخية، والتي بقيت إلى حد الآن متروكة للتأمل أو إلى تقديرات الحس المشترك. فالأمر تعلق بالأحرى بتدخل نموذج مستحدث للمعرفة لأنه متجذر في الحياة وموجه بوعي، في آخر المطاف، عن طريق الاقتضاء العملي، أو كذلك ببروز شكل جديد لفهم الذات المحررة المنظر لها من طرف الفلاسفة. الموجه إلى إيضاح

* أوغيست كونت Auguste Comte (1798-1857)، فيلسوف فرنسي يعد واضع المذهب الوضعي الكلاسيكي الذي كان له أثره البالغ على المعرفة والعلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر ويعتبر أيضا أحد مؤسسي علم الاجتماع وغالبا ما يعزى إليه عرف خاصة بتحقيقه للعقل البشري بالمراحل الثلاث (اللاهوتية، الميتافيزيقية والوضعية أي العلمية) كما اهتم كذلك بتصنيف العلوم من خلال تطورها الذي انتهى بحسبه إلى المرحلة الوضعية أي العلمية ومنها العلوم الوضعية أو الدقيقة أو الصلبة كان يريد الوصول إلى القوانين التي تحكم التنظيم الاجتماعي. من أعماله البارزة: الفصل العام بين الآراء والرغبات (1819)، محاضرات في الفلسفة الوضعية (1830-1842)، دروس في العقل الوضعي (1844) الديانة الوضعية (1852). (المترجم)

** إميل دوركايم Emile Durkheim (1858-1917) سوسيولوجي فرنسي يعد من أبرز مؤسسي علم الاجتماع المعاصر، أصبح مدرسا للبيداغوجيا وللعلوم الاجتماعية سنة 1887 ثم خلف سنة 1902 فرديناند بويسون Ferdinand Bouisson في السوربون ولم يوسع رسميا تدريسه إلى السوسيولوجيا إلا في سنة 1913. يكمن إسهام دوركايم الأساسي في علم الاجتماع من خلال تكوينه الذي ينتسب فيه إلى الوضعية وحيث أنه اعتقد بدراسة الظاهرة الاجتماعية باستقلال صلتها بالأفراد بل إنه ذهب إلى التأثير الممارس من قبل ما أسماه بالضمير الجمعي على الفرد وقد أرجع الظواهر الأخلاقية إلى ظواهر الاجتماعية التي اعتبرها مستقلة عن ضمائر الأفراد. من أهم مؤلفاته: في تقسيم العمل الاجتماعي (1893)، قواعد المنهج الاجتماعي (1895)، الانتحار (1897)، الأشكال الأولية للحياة الدينية (1912)، محاولة في السوسيولوجيا العامة. (المترجم)

الحاضر ومن ثم تنمية قدرة الأفراد والجماعات على الفعل على تاريخهم الخاص، السوسيولوجيا إذن لا تعد من بين العلوم الأخرى؛ فهي في ارتباطها بمثال التحرر الخاص بالأنوار، تعتبر بامتياز الفرع الذي، في الظروف الحديثة، له قابلية إجراء وساطة بين النظرية والتطبيق بتوفير فهم للذات يكون في الآن نفسه عيني وصارم.

بهذا يمكننا التأكيد على أن السوسيولوجيا الوضعية المقيدة ببحث إمبريقي متخصص وتقني، مثل تلك التي رآها هابرماس مهمة في الستينيات، تركز على التخلي عن هذه الخصائص الأصلية الثلاث. في البداية، إذا استمرت في النظر إلى الحاضر باعتباره الموضوع الأول لأبحاثها، فذلك من دون الوعي الحاد الذي كان لدى السوسيولوجيين الأوائل على اعتبار أنه كلما تعلق الأمر بالحاضر، فالمنهج والموضوع ليسا منفصلين تماما. وبالفعل، فالسوسيولوجي الحديث، خلافا لسابقه، يحاول ألا ينظر إلى سلوك ميدان تطبيق خاص لمناهج من الممكن أن يكون نموذجها موجودا ضمن فروع أخرى، مثلما يشهد على ذلك التقييم المفرط لأشكال الفكر (البحث عن قوانين عامة، المنهج التجريبي، الترييض) المبررة بواسطة مذاهب وضعية مختلفة. إنه يسعى إذن إلى فهم ذاته بوصفه متحرر، خارجي عن المجال الذي يفسره.

في مقام ثاني، يمكننا الحديث عن تدهور السوسيولوجيا لأنه، وأثناء التحولات الحديثة الناتجة بفعل النزعة الإمبريكية والتخصص، فقد غفلت عن الاهتمام بإعداد منظور تاريخي للحاضر ونسيت خصوبة التفسيرات المتصلة بالكل الاجتماعي. بحجة الصرامة، وجدت دراسة الظواهر الخاصة نفسها محرومة من هذا المصدر الضروري والذي هو مرجع لمعنى مرحلة، لنزعائها أو السياق الاجتماعي الشامل.

في مقام ثالث، فإن إضعاف السوسيولوجيا الحديثة يمكن أن يفسر بالتخلي عن المشروع النقدي لبداياتها. يقترح هابرماس مقدراً نسبياً بسيطاً لهذه الظاهرة، مستوحى من أدورنو، وذلك بتطوير موضوع الانحراف التكنولوجي والتكنوقراطي للعلوم الاجتماعية. فأثناء تأسيسها* المؤخرة، لم تصمد هذه الأخيرة أمام إضفاء الطابع الأداتي عليها من طرف جهاز الدولة والقوى الاقتصادية. إن الإلحاح على «الحياة» العلمي يغطي الأمر التالي وهو أنها [أي العلوم الاجتماعية] انتقلت إلى نظام مصادر لسلطة تستهدف تحكما أكثر فاعلية على المجتمع عن طريق المعلومة، بواسطة التوقع والتخطيط. حتى هنا وحيث أن اختبار السوسيولوجيا الذي يبدو مستقلاً عن معارف الخبرة المرتبطة بدول أو مؤسسات، يؤكد الفيلسوف، يتحرر فصاعداً بصعوبة من الانجذاب الذي تمارسه أشكال البحث التي تكون في انسجام طبيعي مع حاجات البحث الإداري.

لا يشك هابرماس بأن تكون هذه النزعات المنكفئة الثلاث هي التي تقف وراء الصعوبات الحقيقية المواجهة في التطبيق الحالي للعلوم الاجتماعية: وبالمثل فإن الوعي بأصالتها الذي جعل اكتشافات سوسيولوجيا الأنوار ممكنة، بالمثل، فإن إضعاف هذا الوعي هو ما يفسر بأن الوعي اليوم فقد الوسائل لإنجاز مشروعه في التوضيع الإمبريقي للعالم الحاضر، أن يجابه دوماً حدود مناهجه وفرضياته ويحيا تبعاً لنظام أزمة دائمة. إذن وعلى العكس، فقد انبثق نموذج معياري قوي من تحاليل تاريخية، بالتأكيد مقبول من الناحية الإبيستيمولوجية، حيث

* مؤسسة ترجمة للفظـة Institutionnalisation أي إضفاء الطابع المؤسسياتي على فكرة ما أو كيان معين وهي من اللفظـات التي باتت متداولة لدى الكتاب والمترجمين العرب وهي كغيرها من اللفظـات استخدمت لتفادي تضخم العبارة. (المترجم)

يتوجب مقارنته بمعارف موجودة عندما يزعم المساهمة في علمنا بالمعاصر: إن الأمر يتعلق بمعرفة الحاضر التي تفترض بوعي تاريخيته، والذي لن يستنفذ إذن مناهجه إلا بذاته، ضمن اقتضاء التلاؤم مع موضوعه؛ لمعرفة نظرية طموحة (بفضل ازدواجية سياقها الكلي والتاريخي)؛ وأخيرا، لمعرفة تؤكد نزعتها النقدية والتحررية، أي في ميلها من خلال مغزاها في تنمية قدرة الفعل الأفراد والجماعات في التاريخ. هذا التقديم لمهام السوسيولوجيا، أكثر أصالة تاريخيا - يمثل الأصل المرفوض للعلوم الاجتماعية اليوم -، سيكون خاصة ضمان تفكير نقدي للمعارف، وإذن بطريق غير مباشر الملاءمة الإمبريقية. يوجد هنا على الأقل، كما يؤكد هابرماس، إطار أن يكون للحاضر فرص أكثر للتفكير فيه، بالمعنى المؤكد للكلمة. يبقى فقط معرفة ما إذا كان النموذج المعياري ليس ملزما بشكل مفرط حتى يمكن الاحتفاظ به بمصادقية ضمن الظروف الحالية للعمل العلمي.

نقد الماركسية

حتى يتسنى حل هذا المشكل، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الأمر الآتي: ألا تظهر الثقافة المعاصرة فحسب ابتعاداً متعاضداً مقارنة مع نموذج للفكر التاريخي يفترض أنه الوحيد الملائم، والذي لا يترك للفيلسوف سوى علاقة جدلية بالعلوم، ذات حنين إزاء السوسيولوجيات التأميلية القديمة. وبالفعل، فإن هابرماس قد تصوّر، في الستينيات، الماركسية بوصفها أفضل مقارنة متاحة لهذا النوع المثالي من المعرفة العقلية للحاضر التاريخي الذي يفهم نفسه حقاً كما هو ويطور مجموع الافتراضات المتضمنة في هدفه - فحجة راهنية المشروع السوسيولوجي مُشوّهة اليوم من طرف النزعة الإمريقية.

إن الماركسية باعتبارها تأويلاً شاملاً للمعاصر، وبأكثر تدقيق لبنيات ونزعات نمط الإنتاج الذي يشكل القلب، وبتعريفها للحاضر بوصفه أزمة ويجعل مهمة المعرفة التاريخية هي حل هذه الأزمة، جذّرت الوعي بالانتماء التام لنظرية تلك المرحلة، والتي كانت متعلقة بالكتّاب الإيكوسيين [الإسكتلنديين]. إنها تندمج في الوعي بتاريخية مقولاتها وموضوعاتها الذي يحفظها من التوجيهات المنهجية المزيفة ويبرز من ثمة صلاحية النموذج اللاوعي للعلم الاجتماعي: ذلك المتعلق بنظرية تستند إلى فردانية تاريخية (النظام الرأسمالي) كما هو متصور في خصائصه المتميزة وتطوراتها، مع الأخذ بعين الاعتبار ترابط أجزاء الكل الاجتماعي، وعدم تقليص بحث التحكم الإمريقي في المنطوقات إلى

وضع اختبارات القوانين العامة المفترضة. أخيراً، فإن الماركسية تماهت مع الهدف النقدي والعملي؛ إنها تتصور أولاً العلم الذي أقامته بوصفه وسيلة وضعت تحت تصرف الطبقة العاملة حتى تصبح فاعلة، بواسطة الثورة، لتاريخها الخاص: «لقد جعل ماركس Marx، هكذا كتب هابرماس في صيغة تُذكر بـ فيكو Vico، من الإرادة لفعل التاريخ افتراضاً لإمكانية معرفته» (TP, t. 2, p. 54). رأس المال Le Capital ومن هذا المنظور، ينبغي أن يُقرأ وكأنه تحليل جوفي الشروط التي من خلالها يمكن للناس «صنع التاريخ»، مثل دراسة العقبات العملية والفكرية التي يصادفونها، ضمن المجتمع المعاصر، في إثباتهم الحر لقوتهم على الفعل¹. بكل تأكيد فالأمر يتعلق بشكل أكثر خصوصية لمعرفة الحاضر (الواقع).

ومع ذلك، فليست التحولات الموضوعية الحاصلة في التاريخ الحديث هي التي تمنع استعادة محضة وبسيطة لمسعى ماركس ضد السوسيولوجيا المعاصرة بقدر ما هي عدم كفاية التأسيس وما تفرزه من «نمط إيستمولوجي خاص» (TP, t. 2, p. 24) كالذي اكتشفه وطبقه، وهو عجز يمثل هنا أيضاً رد فعل على محتوى التحليلات العينية. فمن

1 هكذا، على سبيل المثال، «إذا كان ماركس مهتماً بكيفية نقدية، والحالة هذه ضمن قصد تقديم حل عملي للأزمة الموجودة، في التعارض بين العمل المأجور ورأس المال، فذلك [...] لأنه يعتقد باكتشافه في هذا الحل أصل هذا الديالكتيك في المواربة ذاتها الذي يمنع الإنسان من النظر في ذاته هذا الموضوع للتاريخ الذي هو مع ذلك قائم وتأكيد حقوقه كما هي كذلك» (TP, t. 2, p. 32). إن الاقتصاد السياسي لرأس المال يحلل القوانين واتجاهات التقويض الذاتي لنظام اقتصادي؛ لكنه يكشف أيضاً ميكانيزمات الإنتاج الاجتماعي للوهم والجهل التي تعيق أو تؤخر انبثاق الذاتية التاريخية الذي ينبغي أن يكون عامل هذا التقويض. بالنسبة إلى هابرماس، فهذا المشروع الثاني، في الواقع، ما يعطي معنى للأول.

المهم بالتأكيد - وهابرماس، بعد النظرية النقدية الأولى، يطبق ذلك، لا سيما في التقنية والعلم بوصفها إيديولوجيا - محاولا تبيين النظرية الاجتماعية الماركسية للأخذ بعين الاعتبار التحولات الخاصة بالأسمالية المتقدمة وإعطاء مضمون جديد لنموذج خصب لفكر نقدي متمحور حول أزومات العالم المعاصر. فقط، نجاح مؤسسة كهذه يفترض أن نكون على بينة بالعقبات الفلسفية التي منعت ماركس من إثبات، تطوير وانخراط دائم في الثقافة الحديثة وهو ما يبدو له هابرماس بمثابة إسهام أساسي: إن اكتشاف الاستقلال الذاتي الاستمولوجي «للنقد» بانتشاره في «العلم»، بمعنى لمعرفة للعالم المعاصر تهدف إلى الوعي وتأكيد قدرة الفعل في التاريخ («التحرر»)، تحصل في الحاضر وللحاضر.

بالفعل، يبرهن كاتب المعرفة والمصلحة، حتى يكون هذا الاكتشاف مؤسسا وخصبا، يجب توفر على الأقل شرطين نظريين. ينبغي أولا على الأنثربولوجيا التي هي على صلة بها أن تعترف بواقع وبقيمة متعلقين بالجهود النظري للكائن البشري بغرض توسيع استقلاله الذاتي وتأثيرها الواعي على التاريخ. بيد، أنه ومن وجهة النظر هذه، فإن التحديد، في المادية التاريخية، للعمل باعتباره ماهية الإنسان أو بوصفه نشاطا مكونا أساسيا للنوع الإنساني يعد مشكلة. من دون شك، ينبغي الإقرار بأن، «في مستوى أبحاثه المادية، يعتمد ماركس دوما إلى الاعتماد على ممارسة اجتماعية تتضمن العمل والتفاعل؛ بحيث تتوسط صيرورات تاريخ الطبيعة من خلال النشاط الإنتاجي وبواسطة تنظيم تبادلاتها» (CI, p. 85). بعبارة أخرى، ولأن ماركس يطابق، في الممارسة، بين صيرورات لا تشتق ظاهريا من دائرة الإنتاج ويقترح إذن وجود أنماط أخرى من النشاط المكونة للنوع الإنساني، فهو يسمح

بالتفكير بأنه وضمن وسط حيث لا يشير مفهوم «علاقات الإنتاج» بالتأكيد إلا بكيفية مختزلة، ذلك المتعلق بالهيمنة المؤسسة، للشرعيات الإيديولوجية وللصراعات الفعلية الهادفة على الإطاحة بهذه وحل الأخرى، أين يكون للنشاط النقدي الثوري معنى. إنه يتيح أيضا بفهم أن المعرفة التي تجد أصلها في هذه الدائرة هي أولا تلك الخاصة بالتفكير الذاتي للذوات التاريخية. لكن ومثلما أن هذه التوجهات، حسب هابرماس، لا تتيح فرصة توضيح كافي وليست منكسرة ضمن أنثربولوجيا التي، على ما يبدو، تستمر بشكل رسمي في النظر إلى العمل على أنه الميدان بامتياز للحلق الذاتي للنوع، القاعدة الفلسفية التي تركز عليها معرفة الحاضر متصورة وكأنها «نقد» تبقى جد محدودة.

الشرط الثاني الذي يتوجب على تأسيس هذا العلم للحاضر أن يجيب عنه، بالمعنى القوي، والذي يعتقد هابرماس بأنه، وحده، من يمنح حصنا ضد الفهم الأحادي لمهام العلوم الاجتماعية المهيمنة حاليا، في الوقت نفسه الذي تعطي فيه مجددا مغزى لاقتضاء رابطة بين النظرية والتطبيق، هو أيضا بسيط لإدراكه كلية. إنه يتضمن قبول ثنائية إبستمولوجية أولية، وبعبارة أخرى فأن يتعلق الأمر بعلم زمن حاضر، بسبب الخصوصيات التي تم التأكيد عليها، ليس تماما من نفس طبيعة علوم الطبيعة التي تهدف أساسا إلى توسيع قدرتنا على الظواهر. هنا أيضا، يريد [كتاب] المعرفة والمصلحة *Connaissance et intérêt* إبراز بأن الممارسة النقدية لماركس، تستعمل خصائص لصورة ملائمة لمعرفة الحاضر، لا هي تؤسسها ولا تفكر فيها، وهي بهذا تضعف موقفه. «إن ماركس لم يوضح أبدا المعنى المحدد لعلم للإنسان يتحقق بوصفه نقدا للإيديولوجيا، في تعارض مع معنى أداتي لعلم الطبيعة. مع العلم أنه هو نفسه من وضع علم الإنسان في صورة نقد وليس كعلم للطبيعة، فقد

استهواه على الدوام تربيته إلى جانب علم الطبيعة. ولم يحكم بضرورة تبرير نظرية المجتمع من وجهة نظر نقد المعرفة» (CI, p. 78). فبمماثلته دون قيد أو شرط، على الأقل في بعض أقواله، علم الإنسان بالعلوم التجريبية، اهتم ماركس بعدم قدرته على تصوّر بكيفية نقدية حدود علم الاقتصاد الذي كان يعيد بناءه، ولا سيما في أنه لم يُرد ولم يستطع إعطاء نظام (قانون) خاص للمعرفة النقدية التي كان يمارسها، وهي بطبيعة الحال لا تقبل المقارنة بالنموذج الوحيد للعلم المتوضع الذي يقول أنه يتقيد به¹. يمكننا إذن، تحت مظهرين مهمين، أنثربولوجي وإبستمولوجي القول أنه إنكار في الوقت ذاته في أصوله المبدئية وفي استقلاليتها الذاتية باعتباره علما حيث تتأكد معرفة الحاضر.

1 «إن النزعة العلمية المادية [الموظفة في الخطاب الرسمي لماركس حول عمله الخاص] لم تعمل سوى على تأكيد مرة أخرى ما توصلت إليه المثالية المطلقة: إزالة نظرية المعرفة لفائدة علم كوني [مزعوم] متحلل من روابطه [النقدي]، وهنا بطبيعة الحال ليس من معرفة مطلقة، لكن بمادية علمية». (CI, p. 96)

تأسيس السوسيولوجيا

حتى وإن ساهم في الحفاظ على تقليد معرفة بالحاضر حيا من خلال فهم بمعنى راديكالي وتام، فإن الماركسية لا تشكل إذن اليوم قوة مقاومة كافية لانهطاط علم الاجتماع، على الأقل في حجب، ضارة من وجهة نظره ذاتها، لمشروعها المؤسس. فعبر عدم اكتمالها، إنها تشجع بالأحرى سوء الفهم الذي يماثل المطالبة بنظرية نقدية للمجتمع مع مشروع زائف (باطل) لتجديد فلسفة اجتماعية قديمة ؛ من خلال بعض مظاهره - أطروحة وحدة العلم على سبيل المثال -، فهو يلتحق حتى بالمذهب الوضعي الذي هو في الآن نفسه الفاعل والنتيجة لهذا التدهور. في سنوات الستينيات، عبر مجاهتها للجدالات التي تشككت في مشروعيتها حتى وجود نظرية نقدية للمجتمع، رأى هابرماس أن دفعة فلسفية قوية وحدها تسمح بفك هذه الوضعية حيث لا شيء يبدو أنه يجب مخالفة الإضعاف الوضعاني. إنه يفترض أن هذا الأخير يجب أن يأخذ شكل تأسيس السوسيولوجيا *fondation de la sociologie* بوصفها معرفة الحاضر ويفهم هذا الحد بمعنى الفلسفة الكلاسيكية: فالأمر يتعلق بوضع بصورة قبلية *a priori* - وهو ما لا يفيد تجاهل المكتسب العلمي الموجود، الذي يظل النقطة الوحيد كدليل - مشروعية وحدود معرفة، لتحديد المعنى، الرهانات، وحتى إلى حد ما، المناهج.

إن إجراء كهذا ينبغي أن يستجيب لهدفين. من جهة، ينبغي التأكد من أن الخصائص المستخلصة انطلاقا من النموذج التاريخي

للسوسيولوجيا الإسكتلندية في القرن الثامن عشر - الاستقلالية الذاتية المنهجية للعلوم الموجهة عن طريق تحليل المعاصر، توجهاتها النقدية والعملية، إلخ. - هي فعلا مبنية على العقل، ومن جهة أخرى، يجب أن نقبل بالروابط اللازمة، التي برزت إبان المناقشة مع الماركسية، والتي يقيمها هدف نظري مثل هذا مع بعض المشاكل الأنثربولوجية والإبستمولوجية الأساسية. غير أن تأسيسا مثل هذا لا يتطلب شيئا أقل من إعادة تعريف العقل. بالفعل، إذ أمكن للثقافة الحالية أن تتمثل باعتبارها تقدما التخلي عن الصورة الأصلية لمعرفة الحاضر، فذلك لأن المذهب الوضعي المهيمن قد تأتى تدريجيا إلى مماثلة العقل مع شكل المعرفة الموضح بواسطة العلوم التجريبية الحديثة. وإذا كان من الصحيح بأن العلوم الاجتماعية للحاضر تتقاسم مع هذه الأخيرة معايير أولية في الصرامة والصلاحية، فمن المحتمل أيضا بأنها تنتشر ضمن إطار متميز جزئيا. إن محاولة إضفاء المشروعية على النظرية النقدية ينبغي بالتالي أن ينطلق من نزع الإطلاقية عن الصورة المكرسة من قبل المذهب الوضعي، من أجل إعادة تفعيل فكرة التنوع البناء، غير القابل للاختزال، للممارسات العلمية، إذن لوجوه العقل.

ولهذا الغرض، ينطلق هابرماس من موضوع، صار عاديا في الفلسفة الحديثة للعلوم، وبحسبه فإن بناء معرفة إمريقية لا يكون ممكنا إلا تبعا لإطار نظري محدد، وبشكل أعم، موجّه بواسطة افتراضات تجعل التجربة ممكنة ولا تشتت منها. هذا المبدأ لم ينته به إلى تامين تاريخاني في تنوّع «البراديجمات Paradigmes» أو «الإبستميات épistémés»، التي أمكنها أن تشكل خلفية للمعارف العلمية في مرحلة ما أو لفرع علمي، وإنما إلى مسعى يريد أن يكون ترنسندتالي بوضوح. يتعلق الأمر بتمائل اهتمامات معرفة عبر تاريخية، بمعنى الأشكال

الأساسية لاختبار الذهن التي تتأسس بالنظر إلى بعض الغايات والتي تتطابق مع نمط خاص في الكشف عن الواقع. بالنسبة إلى هابرماس، لا يوجد في النهاية سوى ثلاث أنواع من الغايات - تقنية، عملية، تحريرية - وتبعاً لها يمكن للمعرفة أن تتوجه وأن تهيكّل. مع كل واحدة من المصالح تتطابق صورة للعقلانية ومجموعة من العلوم يمكن الكشف عنها بوضوح. سنرى بأنه في نسق العلوم كما هو ممهّد له، فإن معرفة الحاضر كما تفهم بمعنى راديكالي تحتل مكانة رئيسية.

العلوم الإمبريقية - التحليلية. - في هذه المجموعة الأولى، التي تشمل علوم الطبيعة وأجزاء من علوم الإنسان الأكثر قابلية لتبني مساعيها، يقابلها هابرماس بمصلحة تقنية *intérêt technique*: إنها موجهة في نهاية المطاف عن طريق القصد بإخضاع الواقع إلى الإرادة الإنسانية. يتعلق الأمر هنا بإبراز أن العقلانية المطبقة من طرف هذه الفروع والتي ارتقت بها الوضعية إلى مصاف نموذج وحيد لكل عقلانية هي في الواقع جد خاصة: إنها تستجيب إلى واحد من التوجيهات الممكنة للفعل، بمعنى امتلاك الطبيعة لغايات التحكم، عن طريق الحساب، التوقع والتدخل الفعال.

إن اختزالاً للعلوم الدقيقة دون فروق دقيقة، حسب منظور ضمناً مُخبر، بغرض تقني للتحكم في الواقع يبدو أنه يتبع التحليل الهيدغري [نسبة إلى الفيلسوف هيدغر Heidegger] للتقنية الحديثة، الذي وفقاً له فإن تطور العلوم يركز على مشروع، توضح لأول مرة مع ديكارت، الهيمنة على الطبيعة عن طريق الإرادة. وإذا كنا بعيدين عن ذلك، فذلك راجع أولاً لأن هابرماس يرفض القرار التاريخاني *historiciste* الذي يركز على جعل العقلانية الآداتية المعلنة من طرف العلوم والتقنية المعاصرتين أثراً لمصير خاص بالحادثة ويحددها جوهرياً. لكونه

أنثروبولوجيا ماديا، فإنه يرجعها إلى عمل متصور كنمط وجود ممكن وضروري للإنسان أمام العالم. فضلا عن ذلك، فإن القصد الذي يشرف على هذا التحليل ليس هو، مثلما هو الشأن لدى هيدغر^{**}، نقد العقل كما هو، وإنما نسبته (إضفاء النسبية) شكل من أشكال العقلنة، ذاك الذي يسعى، في المرحلة المعاصرة، إلى إخفاء الآخرين. إنها إعادة تفعيل العقلانية وليس هجرانها، ما ينتظره هابرماس هو تجاوز أحداتيات العقلانية الحديثة.

* مارتن هيدغر Martin Heidegger (1889-1976)، فيلسوف ألماني معاصر وواحد من بين أهم الفلاسفة في القرن العشرين، انجذب في بداية حياته الفكرية نحو اللاهوت ثم بالفلسفة فانشغل كثيرا بمسألة الكائن وهي المعضلة التي كانت في صلب انشغالات الفلاسفة السابقين على سقراط لكنها أهملت بعد ذلك من طرف الميتافيزيقا الغربية لكن هيدغر قاربها ظاهريا بالوضع الإنساني (الكيونة البشرية أو الـ Dasein). وكتابه الوجود والزمان Sein und Seit (1927) يعد علامة بارزة في تاريخ الفكر الفلسفي. بدأ حياته تلميذا لـ هوسيرل ثم انعطف على الأنطولوجيا التي أصبحت مقاربتة لها ذات وزن وأثر على فلسفات عديدة منها الوجودية والظواهرية البعدية والتأويلية الألمانية وما بعد الحداثة بل وحتى العلوم الإنسانية كالتحليل النفسي والتولوجيا. من كتبه : مدخل إلى الميتافيزيقا (1935)، ما الشيء؟ (1935-1936)، المفاهيم الأساسية للفلسفة اليونانية (1941)، رسالة في النزعة الإنسانية (1947)، ما التفكير؟ (1951)، نهاية الفلسفة ومهمة الفكر (1966). (المترجم)